الذوق العـام

يظهر لى أن للأمة ذوقاً عاما ، كما أن لها رأياً عاما وعرفاً عاما ، ولكلٍّ دائرة اختصاص لا يتعداها .

فالرأى العام مداره الآراء والأفكار والمعقولات ، والعرف العام مداره العادات ، أما الذوق العام فمداره الفن والجمال .

وكما أن هناك قدراً مشتركا بين المصريين فى لونهم وتقاطيع وجوههم وملامحهم ، حتى لنستطيع فى سهولة ويسر أن نميز المصرى من الأجنبى ؛ وكما أن هناك قدراً مشتركا فى الرأى العام المصرى فى النواحى السياسية والاجتماعية يميزه عن غيره من الرأى العام الأوربى ، فكذلك الشأن فى الذوق العام .

يتجلى هـذا فى كل أنواع الفنون كالطعوم ، فلكل أمة أنواع من الطعوم تستلذها وتُغْرَم بها ، هى نتيجة ذوقها ؛ ومن أجل هذا كان طهى كل أمة يخالف طهى الأمة الأخرى ؛ ولا يقتصر هذا على نوع المأكول ، بل يتعداه إلى كيفية إعداده ؛ وبذا نستطيع أن نحكم على الأمة بأنها تستجيد كذا من ألوان الطعام وأنواعه ، على حين أن الأمة الأخرى لا تستسيغه ولا تتذوقه .

ومثل الطعوم غيرها من الفنون ؛ فالذوق العام المصرى يقدر الموسـيقى المصرية أكثر مما يقدر الموسيقى الغربية ، بل لا يستلذها ولا يرى فيها جمالا ، كما أن أكثر الغربيين لا يجد فى الموسيقى الشرقية طعما ، ولا يقيم لها وزناً .

وكذلك أشكال البناء وما يستجاد منها وما لا يستجاد ، وأنواع الملابس وألوانها وما يُستجمل منها وما يستهجن : كلها خاضعة للذوق العام فى الأمة ،

ولكل أمة فى هذه الشؤون ذوقها ؛ يميزها من غيرها ويضعها فى درجة خاصة من سلم الرقى .

وهذا الذوق العام فى كل أمة هو الذى يقوّم الأدب ويتذوقه ؛ وهو الذى يجعل لكل أمة أدباً خاصا ؛ فالأدب المصرى مثله مثل الطعوم المصرية ، والغناء المصرى ، والبناء المصرى ، إنما يتذوقه المصريون بذوقهم العام ، ولا يتذوقه الغربيون بذوقهم العام ، كما لا يتذوقون طعومنا وغناءنا ؛ فالنوادر المصرية التى تُعجِب المصرى حتى تبعثه على أشد الضحك وأعمقه ، قد لا تحمل الأجنبى على التبسم ، والقصص و « الحواديت » المصرية التى تسترق لب المصرى وتستهويه ، قد لا يأبه لها الأوربى ولا يعيرها التفاتاً إذا ترجمت له . نعم قد يعجب المصرى بآيات من الآداب الغربية ، ولكنه لا يتم له ذلك إلا بعد أن يحوّر ذوقه ويمرنه تمريناً طويلا على تذوّق هذا الأدب ، كما يمرن المصرى ذوقه على استجادة الموسيقى الغربية ، فيستجيدها بعد طول المران ، ولكن هذا ليس من الذوق العام فى شىء .

كما لا نستطيع أن ننكر أن هناك نوعاً من الآداب عالميا ، إذا ترجم إلى أى لغة استجيد ، كنوع من القصص ونوع من الأمثال ؛ ولكن سبب ذلك أن هناك قدراً مشتركاً بين الأذواق ، كما أن هناك قدراً مشتركا بين العقول ؛ فاستجادة المصريين لبعض الأدب الغربى ، أو الغربيين لبعض الأدب العربى ، شأنها كشأن اشتراك الناس جميعاً فى استجادة بعض الطعوم أو بعض قطع الموسيقى ؛ وهذا لا يغير فيما ادعينا شيئاً من أن لكل أمة ذوقاً عاما خاصا بها .

وهذا الذوق العام للأمة يستبد بالأفراد استبداداً لا حدَّ له ؛ فالناس جميعاً خاضعون لأنواع شتى من الاستبداد ، كاستبداد النظم السياسية ، واستبداد العقول ، واستبداد الرؤساء ، ولكن هذه كلها محدودة الدائرة . أما استبداد

الذوق العام فلا حد له ، ولا سلطان يشبه سلطانه ؛ ذلك أنه بجانب الذوق العام للأمة ذوق خاص بالفرد ؛ فكل فرد له ذوقه الخاص يستجيد به بعض الأشياء ولا يستجيد بعضا ، ويستحسن به ويستهجن ، ويستجمل ويستقبح ؛ ولكنه فى كل ذلك مسلوب الحرية خاضع خضوعا تاما للذوق العام . قد يشتد الحر فلا يطيق الإنسان نفسه ، وقد يكون فى نوع من الثياب ما يخفف وطأته ويكسر من حدته ؛ ولكن لا بد أن يخضع للذوق العام ؛ فيلبس الخناق أو رباط الرقبة وما إلى ذلك ، خضوعا للذوق العام وخشية من استهجانه ؛ فليس إنسان يلبس ما يحب ولا يأكل ما يحب على النمط الذى يحب ، ولا يتكلم كما يحب على النمط الذى يحب ؛ إنما هو فى كل ذلك عبد أسير ذليل مقيد مغلول ، فى كل خطوة يخطوها ، وفى كل نَفَس يتنفسه . لقد قيدتنا القوانين بأعمال يجب أن نعملها ، وأعمال يجب أن نتجنبها ، ولكنها ليست شيئاً بجانب أوامر الذوق العام ونواهيه . وعقوباتُ الذوق العام سريعة فاتكة متنوعة ، فهو يعاقب بالاحتقار والازدراء ، ويعاقب بالنظر الشزر ، والكلمة الجارحة القاسية ، ويعاقب بالنقد والتجريح ؛ وهو فى كل ذلك لا يسمع دفاعا ، ولا يقبل عذرا ، ولا يؤجل عقوبة ، ولا يقبل حكمه نقضا ، ولا يعرف حكما مع وقف التنفيذ — لا شىء من ذلك كله ، ولكن حكمه حكم صارم ، قاس ظالم .

وكذلك الشأن فى كل نوع من أنواع الفنون ؛ فإذا اشتهر مغن وأعجب ذوق الجمهور فلا حق لك أن تعيبه ، وإذا عبته فعبه سراً ، وحذار أن تجهر بذلك فيكون دليلا على فساد ذوقك وضعف حسك .

ومثل ذلك فى الأدب — إذا قال الناس إن سحبان وائل خطيب يضرب به المثل فى البيان ، فيقال أفصح من سحبان ، فقل مثلهم ، وإن كنت لم تقف على شىء يثبت فصاحته ويبرهن على بلاغته ، وإن فتشت عن كل أقواله فلم تجد

إلا أسطرا ثلاثة قال فيها (إن الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار) الخ . ولم تستجد هذا فاتهم ذوقك وكرر قولهم : «أبلغ من سحبان» .

وإذا قالوا إن من أبلغ خطب العرب خطبة قس بن ساعدة (أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا) الخ ، فقل كما قالوا ، وإن لم تتذوق .

وكذلك فاخضع دائما لحكمهم وذوقهم ؛ فمن قالوا فيه إنه إمام الأدب أو سيد الشعراء غير مدافَع ، أو قالوا إنه شاعر متكلف ، أو أديب متخلف ، فإياك أن تحدثك نفسك بأن تقلب أوضاعهم أو تخالف إجماعهم .

هكذا استبداد الذوق العام ، ولست تستطيع الخروج عليه وإعلانَ استقلال ذوقك عنه إلا بثورة عنيفة على الذوق ، وتعرض لكل أنواع العقوبات الذوقية .

***

ثم إن كل ما ترى فى الأمة من مظاهر القبح علته ضعف الذوق العام ؛ فإذا رأيت الأمة تصدف عما فى بلادها من أزهار ، ولا يخفق قلبها لرؤية جمالها وجمال طبيعتها ، ولا تتغزل فى محاسنها ، فاعلم أن سبب ذلك ضعف الذوق العام ؛ وإذا رأيت الأمة لا تقدس النظافة ، ولا تشمئز من القذارة اشمئزازها من أبغض شىء وأقبحه ، فعلل ذلك بضعف الذوق العام ؛ وإذا رأيتنا فى المجتمعات لا نرعى نظاما ، ولا ننصت لفن ، ولا نتقيد بآداب اللياقة ، فقل إنه ضعف الذوق العام ، وهكذا . . .

ومن غريب الأمر أن هذا الذوق العام ، الذى يستبد بى فى مأكلى وملبسى ومسمعى — كما رأيت — لا يستبد فى هذه الأشياء ، ولا يبدى أى سلطان على هذا النوع من الضعف ، فهو لا يحتقر المرء لا يقوّم الزهر ، ولا يزدرى من يسىء فى المجتمعات العامة ؛ ولكن يزدرينى إذا خرجت من غير طربوش أو رباط

رقبة فى يوم حار ؛ وسبب ذلك أن الذوق العام لا يعاقب إلا على ما يتذوق ، وفى دائرة ما يفهم ؛ فهو إذا قوّم مناظر الطبيعة عاقب من لم يتذوقها ؛ وإذا أدرك جمال النظام وآداب المجتمعات عاقب من مسها بسوء ، ولمّا يصلْ إلى هذه الدرجة .

***

وبعد فشأن الذوق العام شأن الرأى العام : كلاهما قابل للإصلاح والرقى ؛ فالرأى العام ضعيف وسخيف إذا صدر عن أمة جاهلة ، ويرقى الرأى العام بانتشار الثقافة وتعميم التربية ؛ ويدل تاريخ كل أمة على أنها فى أول أمرها لا يكون لها رأى عام ، ثم تمنح أفرادا قليلين أقوياء ، زعماء مثقفين يوفقون فى دعوتهم فيخلقون رأيا عاما ، وإن هؤلاء القادة يجب أن يسْبَقوا بنوع من الثقافة العامة فى الأمة حتى تستطيع أن تَفْهَم قادتها وآراءهم ، فيأتى هؤلاء القادة فيكوّنون إرادة عامة للأمة ، ويؤلفون بين اتجاهاتها ويكوّنون منها وحدة .

ومما نأسف له أن مجهودات كبيرة بذلت فى ترقية الثقافة العقلية ، وبرامج كثيرة وضعت فى تعميم التربية العقلية وفى تكوين الرأى العام ، ولكن لم توضع برامج لتربية الذوق العام ، ولا بذل مجهود فى ترقيته ورفع مستواه ، فكان لنا زعماء سياسيون وزعماء عقليون ، ولكن لم يكن لنا زعماء فنيون .

وفى ظنى أن الذين يبحثون فى ترقية الفنون عامة من موسيقى ونقش وتصوير وأدب مخطئون كل الخطأ ، لأنهم يحاولون أن يصلحوا النتائج من غير أن يصلحوا المقدمات ؛ فليس الفنان فى الأمة إلا صدى لذوقها العام ، فإذا صح الذوق صح الفن وإلا فلا . ليس الفن والأدب من جنس النباتات التى تنبت من تلقاء نفسها ، ولا هو مما يظهر مصادفة واتفاقا ؛ وإنما هو نتيجة لازمة لعوامل طبيعية سأحاول أن أبينها

كيف يرقى الأدب

أشرت فى مقالى السابق إلى العلاقة بين الذوق العام ورقى الأدب ، وأعود الآن إلى هذه العلاقة ، أزيدها بسطا وإيضاحا .

يذهب بعض المفكرين إلى أن الفنون — ومنها الأدب — ترتقى وتنحط ، وتعلو وتسفل ، وتتقدم وتتأخر ، فى الأمم اعتباطا من غير أن يكون لذلك أسباب ، أو على الأقل أسباب ظاهرة ؛ فالناظر لتاريخ الفنون فى العالم يرى أن أمة فى عصر من العصور قد ترقى فى فن من الفنون كالموسيقى أو الحفر أو التصوير أو الشعر ، على حين أن أمة أخرى ترقى فى فن آخر من هذه الفنون ، ثم بعد رقى عظيم تنحط الأمة فى هذا الفن ، ويحل محل الفن فن آخر ، أو لا يحل محله شىء ؛ وتتبادل الأمم ذلك من غير أن يكون لهذا التقدم وهذا التأخر علة مفهومة . وشأن الفنون شأن النابغين الفنّانين ، فقد ينبغ النابغ فى أمة ولا نعرف لِمَ نبغ وكيف نبغ ؛ وتحاول الأمة أن تخلق نابغين فلا ينخلقوا — بل ترى الأمر عجبا ؛ فقد يوجد النابغة والأمة على أسوإ ما يكون من ضعف فى الخُلُق ، وضعف فى العقل ؛ ثم ترقى الأمة عقلا وترقى خلقا وتتلفت فلا تجد نبوغا ، وكان مقتضى هذا أن يكثر عدد النابغين فيها ويزدادوا نبوغا بازدياد الأمة رقيا ؛ ولكن ينعكس الأمر حتى لتجد الأمة وأعضاؤها قوية ولا رأس ، بينما كان لها فى حال ضعفها رأس قوى ولا أعضاء — ما ذاك إلا لأن النابغة يوهب ولا يخْلق ؛ وقد قال هؤلاء إن الفنون فى ذلك ليست كالعلوم ، فالرقى فى العلوم سبيله ميسور ممهد ، وتستطيع الأمة أن تضع لها خطة تسير عليها لترقى فى الطبيعة أو الكيمياء والرياضة ، فإذا هى جدّت فى ذلك وصلت إلى درجة من الرقى تناسب جِدّها

واستعدادها ؛ ولكنها لا تستطيع أن تضع خطة تسير عليها للرقى فى الشعر والموسيقى والتصوير ، لأن ذلك نوع من الإلهام ، والإلهام بيد الله ، يمنحه من يشاء كيف شاء متى شاء . ولعل الكاتب يشعر بهذا تمام الشعور فى نوع ما يكتب ؛ فهو إذا أراد أن يكتب بحثاً علميا ، أو يحقق لفظا لغويا ، أو يحرر حادثا تاريخياً ، فهو فى أكثر أوقاته مستعد لذلك ، مالم يكن مريضاً أو مهموما ؛ ولكنه إذا شاء أن يكتب قطعة فنية أدبية إنشائية لا يستطيع ذلك إلا فى حالة نفسية صافية ، ومزاج يتناسب والقطعة الفنية التى ينشئها ، من حزن أو سرور ، وحلم أو غضب ؛ ويصادفه وقت هو كما يسميه الصوفية — وقت تجلّ ، يجيد فيه ويغزر ، ويسمو فيه ويصفو . ويعجب كيف أجاد وكيف غزر ؛ ثم هو يحاول بعد مراراً أن يخلق مثل هذا التجلى ، فيفشل ثم يفشل ؛ ويحار فى تعليل ذلك ، وتعليله ما قاله علماء الكلام « ولم تكن نبوّة مكتسبة » — هو فى العلم مالك وقته يصرّفه كما يشاء ، وهو فى الأدب ينتظر الإلهام .

وقالوا إن رقى الأمة فى الأدب لا يرتبط بدرجة ثقافتها ، ولا برقيها العقلى ، ولا بأى سبب من الأسباب ؛ فالأمة المصرية — قديما — رقيت فى فنون النحت والنقش والبناء رقيا بديعا جعلها من أساتذة العالم فى هذا الباب ، وخلّفت على مر الأزمان ثروة لا تقوّم ؛ ولا تزال قبلة الفنانين إلى الآن تستخرج إعجابهم ، وتلهم أذواقهم ؛ والمصريون الآن ليسوا أساتذة فى الفن ، حتى ولا تلامذة ، مع أن أحداً لا يستطيع أن يقول إن المصريين القدماء كانوا أرقى منا عقلا وأعلى ثقافة ؛ وكذلك يشكو كثير من الأوربيين من أن الفن — ما عدا الموسيقى — أخذ يتدهور من القرن السادس عشر ، مع أن أنواع العلوم فى رقى مستمر ، وعقليات الأمم فى تقدم دائم ؛ ولو كان الأمر بالعلل والأسباب المنطقية لوجب أن يكون المصريون اليوم أعلى فنا وأكثر نبوغاً ، ولكان الفن الأوربى الآن أسمى وأتم

منه فى القرون الوسطى . فأما وقد عجز المنطق عن تقديم مقدمات و نتائج صحيحة فليس إلا الإلهام ، وليس للأمة إلا أن تنتظر ما يأتى به القدر .

هكذا قالوا ، أو حاولوا أن يقولوا ، وبذا احتجوا ، أو حاولوا أن يحتجوا ؛ ولكن هل هذا صحيح ؟ — إن فى هذا الرأى غلوا مفرطا ؛ فهو يخرج الأدب عن دائرة الإرادة ، ويجعله مجرد انتظار للوحى والإلهام ؛ ومن الحق أن للأدب خطة تُنْتَهَج كنهج العلم ، وأن من نُعده للأدب يجب أن نثقفه ثقافة خاصة كالذى نعده للعلم ؛ ولكن من الحق أيضاً أننا لا نخلق الأديب ببرنامجنا ، بل لا بد أن تكون قد هيأته الطبيعة ومنحته استعدادات خاصة ، وكفايات ممتازة ، وتهيؤا لقبول الإلهام ؛ ولكنه فى كل ذلك كالعالِم ، فبرنامج العلم لا يخلق نابغة فى العلم إنما يُعده ، والعالم لا بد أن يكون مهيأ للإلهام كالأديب ؛ وأكثر المخترعات والمستكشفات فى العالم كانت نتيجة إلهام أكثر منها نتيجة لمقدمات منطقية وتجارب عملية ؛ وإنما التجارب تهيئ للإلهام وتحقق ما يأتى به ، وتبين صحيحه من فاسده ، وتسمى هذه الإلهامات فروضاً .

ويظهر أن اتجاه هؤلاء الباحثين هذا الاتجاه سببه عقيدة سادت بين رجال الفن عهداً طويلاً ، وهى « أن الذوق لا يعلَّل » ؛ فالناظر ينظر إلى الصورة فيستجملها أو يستقبحها ، فإن أنت سألته : لِمَ استجملها أو لِمَ استقبحها ؟ لم يُحِر جواباً ؛ وإذا أجاب أجاب بكلمات منمقة ، ولكنها جوفاء ، لا تحوى علة ولا توضح سبباً ؛ وإنما هى نفس الدعوى بألفاظ رشيقة جميلة ؛ وإذا رأيت طاقة من الزهر قلت ما أجملها ، ولكن إن سئلت : لِمَ كانت جميلة ؟ قلت : إنها منسقة ، إنها بديعة الألوان ، إن نفسى لترتاح إلى رؤيتها ، إنها لتسر النظر ، وتبهَر العقل ؛ وأنت غنىٌّ بعدُ عن أن أقول لك إن هذه ألفاظ وجمل قد تُرضى البلاغة ، ولكن لا ترضى المنطق ؛ وقد تُعْرَض صورة أو يظهر إنسان

أمام جمع من النَّظَّارة ؛ فهذا يستحسنه وذاك يستقبحه ، وثالث لا يستحسنه ولا يستقبحه ، فإذا سألت من استحسن لِمَ استحسن ، ومن استهجن لِمَ استهجن ، ومن حايد لِمَ حايد ؟ كانت الإجابات مثاراً للعجب ، وموضعاً للضحك . وقد ترى إنساناً وكل عضو من أعضائه على انفراده جميل ، ولكنه ليس جميلا ككل ، فما الذى كوَّنه هذا التكوين ؟ وما الذى وضعه هذا الوضع ؟ ولِمَ استحسنْتَه مفرقا ، ولمَ تستحسنه جملة ؟ لا شىء فى الحقيقة إلا الذوق الذى لا يعلل ، وهذا هو الشأن فى الأدب ؛ وأظهر مثل لذلك ما فعله عبد القاهر الجرجانى فى أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، فماذا صنع ؟ إنه يأتى بالبيت الجميل ثم يقف ويتساءل : فيم كان جماله ؟ فما هو إلا أن يصوغ لك جملا رشيقة ، فيقول: إن هذا اللفظ يروقك ويؤنسك ، وغيره يثقل عليك ويوحشك ، وهذا الوضع يَبْهرُك جماله ، وهذا النظم يأخذ بلبك ما فيه من نسج وصياغة ، ووشى وتحبير ؛ ويعلل سبب ذلك أحياناً بالتقديم والتأخير ، وأحياناً بالفصل والوصل — وكلها علل لا تصلح ، فأنا كفيل بأن آتيك بتقديم يحسن ، وتقديم مثله يقبح ، وفصل يروعك ، وفصل مثله يسوءك ، وقد تحاول أن تفرق بينهما فلا تستطيع ، ثم تسلم سلاحك وتكتفى بأن تقول هذا جميل ، وهذا قبيح ، وهذا يحسن فى ذوقى وهذا لا يحسن ؛ وبذلك تكون قد قطعت شوطاً بعيداً ، ثم فى آخر الأمر عدت إلى النقطة التى بدأت منها سيرك . وما علوم البلاغة كلها إلا محاولة لتعليل الذوق الأدبى ، ولكن هل أفلحَت فى التعليل ؟ إنا لنخشى أن تكون قد دارت حول نفسها ، ولم تأت بشىء «لأن الذوق لا يعلل » .

وإذا كان الذوق لا يعلل فكل ما ترتب عليه لا يعلل ، وإذا كان الفن وليد الذوق فالفن لا يعلل ، لا يعلّل كيف ظهر وكيف قَوِىَ وكيف ضعف .

هكذا أيضاً قالوا أو يصح أن يقولوا — وهذه الآراء — وإن كان فيها شية

من الحق — ليست حقا كلها ، وليست حقا فى أساسها ؛ وقد بذل بعض العلماء المحدَثين مجهوداً حميداً فى بيان مافيها من حق و باطل ، وحاولوا أن يفلسفوا الذوق، و يفلسفوا الجمال ، ووضعوا للذوق والجمال علماً ، وعدُّوه فرعاً من فروع الفلسفة ، وحار بوا فيه الفكرة السائدة : « إن الذوق لا يعلل » ووضعوا قواعد لتعليله نجحوا فيها أحياناً وفشلوا أحياناً ، ولا يزال مجال البحث أمامهم فسيحاً ؛ وكان لهذا الاتجاه الجديد فى علم الجمال أثر كبير فى خلق نظر يات فى الأدب ، ووضع أسس جديدة للبلاغة والنقد الأدبى مما ليس هذا موضعه .

والذى أميل إليه أن الفن نتيجة الذوق لا محالة ، وأن الذوق يمكن تر بيته وترقيته ؛ فالطفل إذا لُفِتَ نظره إلى الأزهار وجمالها تكوّن فيه الميل إلى حبها والاستمتاع بها ؛ فإذا كان بعدُ أديباً اتصلت حياته الأدبية بها ، وظهر فى نتاجه الفنى هذا الحب وهذا التقدير .

والذوق العام للأمة فى قوته وضعفه ورقيه وانحطاطه ، ليس يظهر فجأة ولا هو نتيجة المصادفة البحتة ، إنما هو نتيجة لكل مايحيط بالأمة من ظروف وأحداث، هو نتيجة النظم السياسية ، والحياة الاقتصادية والاجتماعية ، والثقافة العقلية وغير ذلك . و إن شئت فقل إن ذوق الأمة هو تعبيرها عما تُقَوِّم ؛ فالأمة إذا قَوَّمَتْ المناظر الطبيعية تذوقتها ، و إذا قومت جمال الأزهار تذوقته ، و إذا لم تقوم النظام فى المجتمعات لم تتذوقه ، ولم يجرح ذوقها تهويش على محاضر أو مغن أو ممثل — والفنان ليس إلا معبراً عن ذوق الأمة ، والأديب ليس إلا الموقّع للأصوات التى تستلذها الأمة .

ومن أهم أسباب ضعف الأدب العربى مسألتان تتصلان بهذه الحقيقة : الأولى أن الأدب العر بى لا يتصل بالذوق العام للأمة اتصالا وثيقاً ، لأنه يصاغ بلغة غير لغة الشعوب ، ولا يتصل إلا بذوق خاص وهو ذوق محترفى الأدب ،

ومن تكوّن ذوقهم تكوّنا « كلاسيكيا » ؛ ولا أمل فى نجاحه إلا أن نعمل بأى شكل كان على أن نصل الأدب أو أكثره بالذوق العام . والثانية تتصل بالأولى ، وهى أن الآداب فى أكثر الأمم كانت أرستقراطية النزعة يوم كانت القوة فى يد الأرستقراطيين ؛ فلما انتشرت الديمقراطية تبعها الأدب ، فأصبح ديمقراطى الموضوع ، ديمقراطى النزعة . أما الأدب العربى فقد أصبح أرستقراطيا منذ العهد الأموى ، وأصبح أهم أنواع الأدب إنما ينشأ حول قصور الأمراء والأغنياء ، وفى الموضوعات التى تناسبهم من مديح لهم وهجاء لأعدائهم ؛ فلما عمت النزعة الديمقراطية العالم لم تؤثر فى الأدب العربى أثرها فى غيره من الآداب ، بل ظل محتفظاً إلى حد ما بأرستقراطيته ، وهذا قلل من غير شك اتصاله بالذوق العام للأمة .

على كل حال لا وسيلة لترقية الفن ومنه الأدب إلا بترقية الذوق ، وربط الفن به ، ولذلك وسائل :

من أهمها التأذين فى الناس بصوت عال يهزهم هزاً عنيفاً حتى يشعروا بأن أذواقهم مريضة ، لا يشعرون بالجمال كما ينبغى ، ولا يهيمون بالحسن كما يجب ؛ ولست أعنى جمال الوجوه وحدها ، ولكن جمال الأزهار ، وجمال الطبيعة ، وجمال الموسيقى ، وجمال الحركة ، وجمال النظام ، وجمال النظافة ، وجمال المعانى . ويجب ألا يقتصر دعاة الفن على الدعوة لجمال الكرنك وأنس الوجود والمساجد الأثرية ؛ بل يجمعون إلى الدعوة لجمال الماضى جمال الحاضر — وهذا أكثر وضوحا فى الأدب ؛ فدعوة الأدباء دائماً وقول الأدباء دائماً إنما هو إلى الماضى وفى الماضى ، وهذا حسَن لدرجة ما ، ولكن يجب أن يقرن به الدعوة القوية أيضاً إلى النظر إلى أنفسنا والقول فى أنفسنا .

يجب أن نغير تسعيرة الأشياء ، ونضع تسعيرة جديدة لما يدور حولنا ، ونضع أمام ناشئتنا قِيَما جديدة لما يقع عليه نظرهم ؛ فإذا كانت بيوتنا تعنى بكمية الأكل

وتعطيها أكبر قيمة ، وجب أن نرفع قيمة الـكيفية فنضع قيمة كبرى للأزهار على المائدة وللجمال الترتيب والنظام وللجمال الحديث

يجب أن نوجه إرادتنا فى ترقية الذوق كما نوجه إرادتنا لترقية العلم ولترقية النظام السياسى ، ونضع للذوق برامج كالتى نضع لبرامج التعليم .

إنا إن فعلنا ذلك تمخض المجتمع عن فنان ماهر ، وأديب قادر .
